

طول الأمل

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ } [فاطر: ٥] ، وقال تعالى : { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [الحديد: ٢٠] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ : ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ : إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ [١] .

إن في هذا الحديث الشريف الحث على تقصير الأمل في الدنيا ، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها ، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر همه جمع جهازه للرحيل .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وَطَاءً ؟ فَقَالَ : ((مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)) [٢] .

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن الحسن أنه قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : ((إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، لا يدرون ما قطعوا منها أكثر أم ما بقي منها ، فحسر ظهرهم ، ونفد زادهم ، وسقطوا بين ظهراي المفازة ، فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة ، يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا لحديث العهد بالريف ، فانتهى إليهم ، فقال : ما لكم يا هؤلاء ؟ قالوا : ما ترى ، حسر ظهرنا ، ونفد زادنا ، وسقطنا بين ظهراي المفازة ، ولا ندري ما قطعنا منها أكثر أم ما بقي علينا ؟ قال : ما تجعلون لي إن أوردتكم ماء رواء ، ورياضا خضرا ؟ قالوا : نجعل لك حكمك ، قال : تجعلون لي عهدكم ، وموآثيقكم أن لا تعصوني ، قال : فجعلوا له عهدهم ، وموآثيقهم أن لا يعصوه ، فمال بهم ، وأوردهم رياضاً خضراً ، وماء رواء ، فمكث يسيراً ، ثم قال : هلموا إلى رياض أعشب من

رياضكم هذه ، وماء أروى من مائكم هذا ، فقال جل القوم : ما قدرنا على هذا حتى كدنا أن لا نقدر عليه ، وقالت طائفة منهم : أَلستم قد جعلتم لهذا الرجل عهدكم ، وموائيقكم أن لا تعصوه ، وقد صدقكم في أول حديثه ، فأخر حديثه مثل أوله ، فراح وراحوا معه ، فأوردتهم رياضاً حضراً ، وماء رواء ، وأتى الآخريين العدو من تحت ليلتهم ، فأصبحوا من بين قتيل وأسير)) [٣].

فهذا المثل العظيم في غاية المطابقة لحاله صلى الله عليه وسلم مع أمته ؛ فإنه أتاهم والعرب إذ ذاك أذل الناس وأقلهم وأسوأهم عيشاً في الدنيا والآخرة ، فدعاهم إلى سلوك طريق النجاة ، وظهر لهم من براهين صدقه كما ظهر من صدق أمر الذي جاء إلى القوم الذين في المفازة ، وقد نَفِدَ ماؤهم ، وهَلَكَ ظهرهم فدلهم على الماء والرياضِ المُعشِبة ، فاستدلُّوا بهيئته وجماله وحاله على صدق مقاله فاتبعوه ، ووعدَ من أتبعه بفتح بلاد فارس والروم وأخذَ كنوزهم . وحذَّروهم من الاغترار بذلك والوقوف معه ، وأمرهم بالاجتراء من الدُّنيا بالبلاغ ، والجدِّ والاجتهاد في طلب الآخرة والاستعداد لها ، فوجدوا ما وعدهم به كلُّه حقاً ، فلما فُتِحَتْ عليهم الدُّنيا - كما وعدهم - اشتغل أكثرُ الناسِ بجمعها واكتنازها والمنافسة فيها ، ورَضُوا بالإقامة فيها والتمتُّع بشهواتها ، وتركوا الاستعداد للآخرة التي أمرهم بالجدِّ والاجتهاد في طلبها . وقبلَ قليلٌ من الناسِ وصيَّته في الجدِّ في طلب الآخرة والاستعداد لها . فهذه الطائفةُ القليلةُ نجت ولحقت نبيِّها صلى الله عليه وسلم في الآخرة حيث سلكت طريقه في الدُّنيا ، وقبلت وصيَّته وامتلَّت ما أمر به . وأما أكثرُ الناسِ فلم يزلوا في سكرة الدنيا والتكاثر فيها ، فشغلهم ذلك عن الآخرة حتَّى فاجأهم الموتُ بغتةً ، فهلكوا وأصبحوا ما بين أسير وقتيل [٤].

ومن أبلغ الأمثلة للحياة الدنيا ما ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : ((إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ)) ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا وَتَنَّى بِالْأُخْرَى ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا يُوحَى إِلَيْهِ ، وَسَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى

رُعُوسِهِمُ الطَّيْرَ ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحْضَاءَ فَقَالَ : ((أَيْنَ السَّائِلُ أَنفًا أَوْ خَيْرٌ هُوَ ؟ - ثَلَاثًا - إِنَّ الْخَيْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ ، وَإِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَفْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرِ كُلَّمَا أَكَلَتْ ، حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ . وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالْكَالِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) [٥] .

إنَّ الدنيا لا تدم لذاتها وإنما يدم فعل العبد فيها ، فالدنيا قنطرة ومعبرة إلى الجنة أو إلى النار ، فهي مزرعة الآخرة ومنها زاد الجنة ، وخير عيش ناله أهل الجنة إنما كان بسبب ما زرعه في الدنيا ، قال تعالى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } [الحاقة: ٢٤] .

إنَّ الذم والوعيد إنما ورد في حق من آثر الدنيا على الآخرة فصارت الدنيا أكبر هممه ومبلغ علمه ، قال تعالى : { فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات: ٣٧-٣٩] . فالمطلوب من العبد الاعتدال في العمل للدنيا والآخرة ؛ لا يشتغل بالدنيا ويترك الآخرة ، ولا يتخلى عن الدنيا ويتركها بالكلية فيضر بنفسه وبمن يعول ، أو يصبح عالة على غيره .

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

[١] رواه البخاري (٦٤١٦) .

[٢] رواه الترمذي (٢٣٧٧) ، وصححه الألباني رحمه الله في (صحيح سنن الترمذي) (١٩٦٣) .

[٣] رواه ابن المبارك في (الزهدي) (٥٠٧) والرامهرمزي في (الأمثال) (٢٣) عن الحسن مرسلًا .

[٤] انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ص (٣٥٨-٣٥٩).

[٥] رواه البخاري (٢٨٤٢) ، ومسلم (١٠٥٢) .